بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

نحمد الله ـ تعالى ـ حمدا كثيرا ، كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه ، ونصلى ونسلم على خاتم رسله وأنبيائه ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

فهذه هى الطبعة الرابعة من هذا الكتاب مزيدة ومنقحة ، بقدر ما تيسر لنا في زحمة من العمل ، وعديد من الشواغل ، التى لم تسمح لى بما كنت آمله من إلحاق بعض الفصول فيما يتصل بتاريخ علم الكلام ، و أبرز الرجال الذين أثروا في مسيرته ، وعن أهم معالم المكتبة الكلامية ، وعن بعض سمات البحث الكلامى في العصور المتعاقبة ، والمذاهب المتصارعة ، وشئون أخرى قد تسهم في إنجاز المهمة الأولى لهذا الكتاب ، مدخلاً يمهد السبيل أمام الراغبين في الدرس الكلامى ، من شداة المتخصصين أو عامة المثقفين ، أو الباحثين المبتدئين ، فيزيدهم أُنْسًا في طريق غير مأهول ، ويُميط عن طريقهم من الأذى ما عساه يثبط الهمم ، أو يضعف الحوافز والميول ، لكنى قَنِعت بتصويب بعض المواضع ، وإضافة بعض التفاصيل هنا أو هناك . مرجئا ما أشرت إليه من إضافات إلى طبعة لاحقة ، إذا أمدّ الله في الأجل ، وهيأ لذلك الأسباب .

وعسى أن تلقى هذه الطبعة ما لقيته أخواتها من قبل ، وهى الطبعة الثالثة المصرية ، التى قدمتها « مكتبة وهبة » القاهرية ، وبذلت فيها جهدا جديدا على النحو الذى ذكرت آنفا ـ عسى أن تلقى من النجاح ما قدر لسابقاتها ، وكانت قد صدرت ـ قبل هذه الطبعات الثلاث ـ في مدينة كراتشى من دولة « باكستان الإسلامية » الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، الذي تبين أنه يلبى حاجة أساسية من حاجات الجامعات الإسلامية ، التى تولى علم الكلام عناية متميزة ، وحاجات أقسام الدراسات الإسلامية والفلسفية في الجامعات الأخرى ، ـ بحمد الله . ولقى

أيضا ترحيبا واهتماما ، من المناخ الثقافى العام في عديد من البلاد العربية ، وغيرها ، فترجمه أحد الزملاء إلى التركية ، وظهر منذ بضع سنين بمدينة استانبول ـ حرسها الله تعالى ـ ، ولكل كتاب قَدَرُه وقدْرُه ، ومسيرته وأثره ، وهنّ كالأولاد ـ لا أذكر من صاحب هذا التشبيه في العصر الحديث ـ وقد سئلت عنهم فاطمةُ بنت الخُرشبِّ قديما : أيُّ أولادها أحب إليها ؟ فقالت : « هم والله كالحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرفاها ، ولكن صغيرهم حتى يكبر ، وغائبهم حتى يحضر ، ومريضهم حتى يبرأ ». وليس هذا الكتاب بأول كتبى ولا أحدثها ، غير أنى لا أبرئ نفسي ـ وأنا الأب ـ من ميل خاص إليه ، وإعزاز زائد له . ولن أزال ـ بإذن الله ـ عازما على تجديد بنيته ، وإثراء محتواه ومادته . والله ولى التوفيق .

وحق عليَّ في ختام هذه الكلمات أن أشكر السيد « حسين وهبة » ــ رزقه الله بركة أبيه ـ رحمه الله ؛ فقد أبدى حرصا مشكورا على إعادة إصدار الكتاب في ثوب جديد ، ورغب إلىَّ في مراجعته وتنقيحه ، وهى مهمة غير يسيرة ، أعان عليها عزم شاب كريم من طلبتى ، هو الأستاذ حاتم يوسف ـ جزاه الله خير الجزاء ـ فقد نهض بالكثير منها ، وأذكرنى بما قمت به نحو أستاذى الأول فى علم الكلام ، الشيخ الدكتور على عبد المنعم عبد الحميد ـ طيب الله ثراه ـ حينما كان يعدّ ـ بالاشتراك مع الأستاذ الكبير الدكتور محمد يوسف موسى ـ كتاب إمام الحرمين « الإرشاد » للنشر ، في منتصف القرن الماضى بالقاهرة ـ رحم الله الجميع ، وجزاهم عن كاتب هذه السطور خير الجزاء ، وأجزل لهم المثوبة والعطاء ، وسائر شيوخنا ، وأبوينا ، وأصحاب الحقوق علينا ، وصلى الله وسلم وبارك في البدء والختام ، على خير الأنام . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

القاهرة في جمادي الأخرة ١٤٣٣ هـ

الموافق مايو ٢٠١٢ م

حسن الشافعى

الأستاذ بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

ورئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة

وعضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين . وبعد :

فقد يكون من المناسب أن نقدم بين يدي هذا الكتاب كلمات قليلة عن مهمته ، ومحتواه ، وظروف إصداره ، وإن كان الكتاب كله مقدمة بين يدي علم الكلام ، وقديمًا ميّز أسلافنا بين مقدمة العلم أو مبادئه ، ومقدمة الكتاب أو خطبته .

ومهمة الكتاب ، كما يدل عليها عنوانه منذ البداية ، هي أن يمهد الطريق للراغبين في دراسة هذا العلم ، الذي عنى به علماؤنا ونظارنا الأوائل ، واعتبروه هو « الفقه الأكبر » ، وعلم « الأصول » التي يقوم عليها الدين الإسلامي ، بأحكامه العملية ، وآدابه الخلقية ، ونظمه الفقهية التطبيقية ، بل بثقافته وحضارته جميعًا . وهو يحاول أن يكون دليلاً لهولاء الدارسين في توجههم شطر هذا العلم ، يشد على أيديهم ، ويكفكف من توجسهم وترددهم ، ويبث الأمل والطمأنينة في صدورهم ، ويرتاد لهم الطريق منبهًا على معالمه البارزة ، ومراحله الأساسية ، مذكرًا إياهم بالأدوات والاستعدادات اللازمة لسلوك هذا الطريق ، على نحو يؤذن ببلوغ الهدف وتحقيق الغاية ، دون نزوع إلى الإفراط أو التفريط الذى جنى على بعض سالكيه من قبل .

وفي الكتاب نبرة ولاء لهذا العلم ، وثقة في مستقبله ، وإيمان وثيق بمهمته المتجددة في كل العصور ، وخاصة في عصرنا هذا ، عصر الصراع « الإيديولوجي » ، والحوار العقائدي ، والصحوة الدينية التي تكاد تنتظم العالم بأسره . . وللمسلمين منها ـ بحمد الله ـ نصيب وافر . غير أن الوعي العقائدي المنشود الذي يبعث جوهر العقيدة وهو التوحيد ، ويضع الأساس الفكري لنهضة

حضارية أصيلة في كافة مجالات الحياة ، ويبشر بإنسان جديد ، ويعيد زمام القيادة إلى يد الأمة المسلمة ـ لن يتحقق إلا بالعلم والعمل ، والعودة الجادة إلى منبع الثقافة الإسلامية وهو الكتاب والسنة ، في ضوء تراث الأئمة ، الذى ينتظم مجالات العقيدة والعمل جميعًا ، وعلى أيدي علماء ربانيين يرشدون هذه الصحوة ، ويحدونها إلى غاياتها النبيلة بإذن الله .

ولعل هذا الولاء ، الذي يعترف به كاتب هذه الصفحات ، لم يحل دون الموضوعية والإنصاف ، في محاولة تفهم الأفكار والمواقف ، وتقويمها والحكم عليها ، حيث لم يقنع الكاتب بمجرد التسجيل والوصف ، بل تجاوز أحيانًا إلى النقد والتقويم ، والحكم والموازنة ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

والكتاب مكون من خمسة أبواب تتضافر وتتعاون على تحقيق الغاية السالفة . فالباب الأول يهدف إلى التعريف بعلم الكلام وبيان مشروعية البحث فيه ، من خلال ثلاثة فصول أولها عن تعريف العلم ، وثانيها عن الأسماء التي عرف بها ، والأخير عن مشروعية الاشتغال به .

أما الباب الثاني فيعرض المسيرة التاريخية الطويلة التي قطعها هذا العلم ، ويصف معالمها الرئيسية في إيجاز واختصار بعنوان « نبذة عن تاريخ العلم » ، ويتعرض الفصل الأول منه لفترة النشأة خلال القرن الهجري الأول . ويليه الثاني مختصًا بعهد التدوين وظهور الفِرَق ، وفيه محاولة لتوزيع هذه الفِرَق في منظومة منطقية معينة ، بناء على مواقفها الأساسية . ثم يأتي الثالث فيتناول المراحل التاريخية التالية منذ القرن السادس تقريبًا حتى الوقت الحاضر .

وفي الباب الثالث محاولة لتَعَرُّف « مناهج البحث في علم الكلام » وهي ناحية بالغة الأهمية في دراسة أي علم ، وتَعَرُّف طبيعته وخصائصه ، لم تنل عناية تكافئ أهميتها من المشتغلين ، ويختص الفصل الأول منه ببيان موقف المتكلمين من « الدليل العقلي » . والثاني يدرس موقفهم من « الدليل النقلي » . والثالث يتعرض لدراسة صيغ الاستدلال وصوره في علم الكلام .

ويعمد الباب الرابع ـ وعنوانه « فصول تكميلية » ـ إلى محاولة إكمال هذا التعريف المبدئي بعلم الكلام عن طريق بيان علاقاته بالعلوم المختلفة شرعية وغيرها ، مع التطلع إلى إمكاناته المستقبلية ، وذلك في الفصل الأول من هذا الباب . وفي الثاني تعريف موجز بالمصطلح الكلامي الذي هو أداة رئيسية للبحث والدراسة ، كما هو الحال في كل علم . وفي الفصل الثالث محاولة للتعريف بما يقابل علم الكلام في الأديان الكتابية وأعنى بها الثيولوجيا اليهودية والمسيحية ، مع الإلمام قليلاً بمدى إفادتها من علم الكلام . وذلك بحث مهم في ذاته ، وخاصة لمن لم تتيسر لهم أية دراسة مقارنة لأنظمة عقدية خارج البيئة الإسلامية .

أما الباب الخامس ، وهو الأخير : فقد قدمنا فيه نصوصًا مختارة تمثل طائفة من أهم الآراء العقائدية التي اعتنقتها الفرق الكلامية العشر ، التي تعرضنا لها في الباب الثاني ، أملاً في أن يتذوق القارئ أسلوب المتكلمين في عرض أفكارهم ، ويتمرس ـ إلى حد ما ـ بهذا الأسلوب ، قبل الدخول في دراسة جادة لمحتويات هذا العلم ومسائله . وبالله التوفيق .

وبعد . . فإن الدراسات الكلامية قد ازدهرت وآتت بعض ثمارها في النصف الأخير من القرن الرابع عشر ، ولعل مرد ذلك إلى النهضة التي انتظمت مؤسسات التعليم الديني في فترة مقاومة الاحتلال الأجنبي والخلاص منه ، وإلى مشاركة أقسام الدراسات العقلية والإنسانية في الجامعات المدنية ، في اكتشاف الحلقات المفقودة والآثار المجهولة لتاريخنا الفكري ، وإلى الحركة الناشطة في مجال إحياء التراث ونشره ، وإلى التحدي الفكري الذي مثلته الثقافة الغربية والكشوف العلمية والمذاهب الفكرية الجديدة للعقلية المعاصرة . . إلى غير ذلك من العوامل التي تقتضي منا سعيًا حثيثًا إلى ربط شبيبتنا الناشئة بتراثهم الغني الزاخر ، ودينهم القائم على الحق والإنصاف ، المطابق للفطرة والموافق للعقل الصحيح الصريح ، الذى لا يتعارض مع النقل الصحيح . . كما أجمع عليه نظار المسلمين ، ونقله أبو الوليد

ابن رشد [٥٩٥هـ] في مطلع رسالته «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال»[١]. وذلك دون انغلاق أو جمود، بل في سماحة وتفتح، وحرص على الموازنة والحكم.. تجعل كل ما يصلنا من أفكار عونًا لنا لا علينا، وجزءًا أصيلاً من نسيج فكرنا، دون إحساس بالنقص والدونية، ما دمنا نرجع في ذلك إلى قاعدة فكرية ثابتة، وعقيدة حنيفية راسخة.

وقد سبقت هذا العمل المتواضع أعمال كثيرة تتجه إلى الهدف نفسه الذي يرمى إليه، ومنها «كتاب التوحيد» للشيخ حسين والي، وكتاب «محاضرات في علم التوحيد» لشيخنا علي حسب الله، ومقدمة كتاب «مناهج الأدلة»، لأستاذنا الدكتور محمود قاسم، و «علم الكلام وبعض مشكلاته» لأستاذنا الدكتور أبي الوفا التفتازاني، و«عوامل وأهداف نشأة علم الكلام» لزميلى الدكتور يحيى فرغل ــ رحمهم الله جميعا ـ وغيرها كثير والحمد لله.

وندعو الله ـ تعالى ـ أن يكون هذا الكتاب عونًا لمبتدئ أو هداية لحائر أو تشجيعًا لراغب؛ فهو ـ سبحانه ـ ولي كل خير ومصدر كل نعمة، وبنعمته تتم الصالحات، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

حسن الشافعي

---

(١) ابن رشد: فصل المقال، ص ٣١.

obeikandl.com